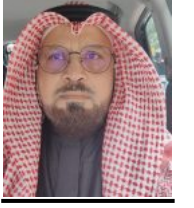


أَفَلَا شَقَّقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟ د. طلال بن عبدالله بن حسن بخش



نشرت مؤخرًا مقطعًا للشيخ عوني القدومي وهو يتحدث عن السيرة النبوية العطرة عبر منصة "تيك توك"، فإذا بالمقطع يلقي رواجًا واسعًا شارب المنة ألف مشاهدة. غير أن بعض التعليقات لم تنشغل بروح السيرة ولا بما حملته من معانٍ إيمانية تهدي القلوب، بل مالت إلى أسئلة جانبية: أهو صوفي؟ أم أشعري؟ أم غير ذلك؟ وكان جوابي لهم كلمة تختصر الطريق كله: مسلم.

إن أسمى تعريف للإنسان هو الإسلام؛ تلك الكلمة الجامعة التي تهدم جدران التصنيف، وتبني جسور الأخوة. المسلم لا يُعرف بالانتماءات الضيقة، بل يُعرف بما عقده قلبه ولسانه من شهادة التوحيد، التي تؤلف بين القلوب وتوحد الصوف.

لقد نهانا الشرع الشريف عن التطلُّ على السرائر، فلم يجعلنا قضاةً على القلوب ولا أوصياء على النيات، وإنما أوكل ذلك إلى الله وحده، القائل: (إِنِ الْيَتِيمَ إِيَابَهُمْ ۖ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) [الغاشية: 25-26].

ومن أعظم الدروس النبوية التي تبين خطورة الاستعجال في الحكم على الناس ما وقع للصحابي الجليل أسامة بن زيد رضي الله عنه، حين قتل رجلًا في إحدى الغزوات بعدما نطق بالشهادة. فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحِمْيَرِ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ.. فَحِجَّتْ رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَطَعْنْتُهُ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَهَا تَعْوُذًا. فَقَالَ: (أَفَلَا شَقَّقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟!) قَالَ أُسَامَةُ: (فَمَا زَالَ يَكْرُرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَيَّيْتُ أَنِّي أَشَلَّمْتُ يَوْمَئِذٍ). رواه مسلم (96).

وجاء في حديث آخر صحيح: أن النبي ﷺ قال: (إِنِّي لَمْ أَوْمَرُ أَنْ أَتَّقِبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا أَشُقُّ بُطُونَهُمْ) متفق عليه: البخاري (4351) ومسلم (1064).، فهذه القاعدة النبوية الخالدة تُرسِّخ أن الحكم في الدنيا على الظاهر، وأما النيات والسرائر فإلى الله الذي يعلم ما في الصدور: (يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ) [غافر: 19].

إن وظيفة المسلم إذن ليست في المحاكمة ولا في التصنيف، وإنما في إقامة شعائر الدين، وأداء النصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة، مع الرحمة التي تفتح القلوب، لا مع الغلظة التي تنفرها.

إن الانشغال بمثل هذه التساؤلات الضيقة لا يخدم جوهر الدين، بل يضعف وحدة الأمة ويغذي خلافًا لا يستفيد منه إلا الأعداء. وقد شرفنا الله باسم جامع فقال: (هُوَ سَعَاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا) [الحج: 78].

فلنحفظ لهذا الاسم قدره، ولنترك الحساب لمن بيده الحساب، جل جلاله، ولنجعل كلمة النبي ﷺ لأسامة: «أَفَلَا شَقَّقْتَ عَنْ قَلْبِهِ؟» تذكرة لنا في كل حين، حتى لا نظلم أحدًا ولا نتعدى على ما استأثر الله بعلمه.

كتبه الفقير إلى ربه: د. طلال بن عبدالله بن حسن بخش

دكتورة في المصرفية الإسلامية والتمويل - باحث ومفكر إسلامي

كوالالمبور 03-ربيع الثاني - 1447هـ